القصص

على هامش السيرة

حفر زمزم

للدكتور طه حسين

(٢)

لاهم قد لبيت من دعانى وجئت سعى المسرع العجلان
ثبت اليقين صادق الايمان يبتغى الحارث غير وان
جذلان لم يحفل بما يعانى لاهم فتصدق لنا الامانى
مالى بما لم ترضه يدان

كان صوت عبد المطلب يندفع بهذا الرجز عريضا يملأ الفضاء من حوله ، نقيا يكاد يعث الجنان فيما يحيط به من الاشياء . وكان كل شيء مستقراً لا يضطرب فيه الا هذا الصوت العريض النقى والا هذه الذراع التى ترتفع بالمعول قوية ثم تهوى بها عنيفة ثم تدعه الى المسحاة فتقرف بها التراب فى المكتل ، والا هذا الغلام الناشيء يرقب حركة أبيه ويسمع صوته ويرد عليه رجع هذا الصوت كلما وصل فى الدعاء الى هذا البيت .

لاهم فتصدق لنا الاماني

حتى اذا امتلأ المكتل حمله بذراعيه الضعيفتين وأسرع فى شيء من الجهد الى خارج المسجد فألقى مافيه ثم عاد وأبوه يرفع المعول فى الجو ويهبط به الى الارض ويملأ فضاء البيت بصوته النقى العريض والعرق يتصبب على جبينه ولكنه لا يحس جهداً ولا يجد اعياء . وكانت الشمس قد ألقت على الارض رداء من النور نقيا ولكنه ثقيل همد له كل شيء وأوى له الناس الى بيوتهم يقيلون . وانقطعت له الحركة وخفتت الاصوات الا هذه الجنادب التى يروقها وهج الشمس ويسكرها لهب القيظ فتصدح بالغناء اذا سكت كل شيء وقد أخذ الغلام يحس لذع الجوع وحر الظمأ ولكنه لا يقول شيئا بل لا يكاد يفكر فى شيء ، انما سمعه وقلبه لصوت أبيه ، وعيناه للمكتل والتراب ، ونشاطه لأفراغ المكتل اذا امتلأ . وهما فى ذلك اذا غلام يسعى قد أرسلته حمراء يحمل الى الرجل والغلام شيئا من طعام وشراب ، حتى اذا انتهى اليهما وضع نقله وقال : مولاى هذا غداؤك وغداء الصبى قد أعدته سيدتى العامرية هيئته بيدها وهى تعزم عليك لتصيبن منه ولترفقن بنفسك ولترفهن على هذا الصبى الحدث : لقد قال الناس جميعا وهذا كل شيء لهذا الوهج الذي يصهر الابدان ويحرق الجلود وأنت فيما أنت فيه من جد يضنى وجهد يهلك لا تقيل ولا تستريح ولا ترفع هذا الطفل الذى لم يتعود الجهد والعناء . بعض هذا يبلغك ما تريد . ولكن عبد المطلب لم يسمع للغلام الا باذن معرضة ، ولم يستقبله الا بوجه مشيح ، انما هو ماض فى رجزه واضطراب يده بالمعول ارتفاعا فى الجو وهبوطا الى الارض ، والصبى يتبعه بسمعه وقلبه ، ولكن عينه ربما اختلست نظرة قصيرة ملؤها الجوع والظمأ والنهم الى هذه السلة وما فيها . وربما وقف ذهنه الصغير عن متابعة أبيه وانصرف الى ماؤى هذه السلة يعدده ويحصيه ويتمثله . ان فيها لشواء غريضا وان فيها للبنا يعازجه عسل هذيل الذي حمله خاله فيما حمل من هدايا البادية حين أقبل يزور أخته منذ أيام . وان فيها لماء عذبا ومن يدرى ؟ لعل حمراء قد نقعت فيه شيئا من زبيب الطائف ، فانها تجيد ذلك وتحسنه . وعبد المطلب ماض فى رجزه وفى حركة يديه بالمعول والمسحاة وقد امتلأ المكتل فيهم الصبى أن يحمله ليلقى مافيه ويدنو الغلام يريد أن يعينه فى ذلك . ولكن عبد المطلب ينتهره نهرا عنيفا

« اليك يا غلام فما لهذا الامر الا عبد المطلب وابنه .

ويمضى الصبى بالمكتل ويعود ، ولكن الرجز قد انقطع وذراع عبد المطلب لا تضطرب بالمعول صعودا وهبوطا ، وانما هو مطرق الى الحفرة ينظر فيها فيطيل النظر ثم يرفع بصره الى السماء فيطيل رفعه ثم يدير عينه من حوله كأنه يريد أن يلتمس شيئا أو أن يلتمس أحدا . ثم يدعو ابنه فى صوت ملؤه الدهش والحيرة والرضى والاشفاق :

« هلم يا بنى أنظر أترى ماء ؟ — كلا يا أبت وانما أرى ذهبا وسلاحا ؟ — ومع ذلك فلم أوعد بذهب ولا سلاح ، وانما وعدت بالماء لسقى الحجيج : انوء هذا الامر لنرا . ولكن هلم يا بنى فما أرى الا أن الظمأ والجوع قد أجهداك » .

وأقبل الرجل وابنه على السلة فاصابا مما فيها ذاهلين واجمين ما أحسب أنهما وجدا لما يصيبان طعما وأحسا له ذوقا ، يصرفهما عنه هذا الذهب الذى يتوهج فى الحفرة وهذا السلاح الذي يظهر أنه كثير ثقيل . حتى اذا فرغا من طعامهما عاد عبد المطلب الى الحفرة فيستخرج مافيها فاذا غزالان من ذهب نقى ثقيل واذا سيوف ودروع . فيكبر ويرفع صوته بالتكبير ويسرع اليه أفراد قايلون كانوا قد بدأو يفدون الى المسجد كدأب قريش حين كانت تحف وطأة القيظ . فاذا رأوا هذا الكنز دهشوا ثم تصايحوا ثم يفيض الخبر فيتجاوز المسجد واذا شباب قريش وشيوخها يقبلون سراعا مزدحمين يسرع بعضهم حب الاستطلاع ويسرع بعضهم الآخر الطمع فى الغنيمة ويسرع يفرق منهم باعث ديني غامض فيه خوف وفيه رجاء وفيه اكبار للالهة وتوقع

المعجزة الخارقة . حتى اذا توافوا جميعا واستوثقوا من أن عبد المطلب قد وجد كنزا وعرفوا حقيقة هذا الكنز وقوموا ذهبه الخالص وصناعته البارعة وما فيه من سيوف ودروع أداروا أمرهم بينهم . لمن يكون الكنز؟ قال هشام بن المغيرة انما هو لقريش فقد وجد في المسجد وكل ما وجد داخل الحرم في أرض عامة فهو لقريش وقال حرب بن أمية : انما هو لبني عبد مناف خاصة فهم الذين احتفروا وهم الذين ظفروا وما ينبغي لقريش أن تغلبنا على خير ساقته الينا الآلهة وتنازع القوم وطال النزاع واختصم القوم واشتدت الخصومة وعبد المطلب صامت مطرق لا ينطق بكلمة ولا يأتي بحركة . هنالك صاح به حرب: مالك لا تقول وأنت الذي وجد الكنز وانت أحق بان ترى رأيك فيه ! . قال عبد المطلب في هدوء وأناة ما ينبغي أن يكون الكنز لأحد حتى تستشير الآلهة فما حفرت ولا ظفرت الا بأمر خفي وما أرى الا أن للآلهة في ذلك ارادة وقدرا لا نبلغهما حتى نسأل الكهان . هنالك وجمت قريش وغضب بنو عبد مناف وانكروا جميعا في انفسهم أن يشرك عبد المطلب معهم الآلهة في هذا الكنز المدفون. ولكنهم لم يقولوا شيئا وما كان لهم أن يقولوا شيئا ! ومن الذي يستطيع أن يرد قضاء الآلهة ؟ حمل الكنز اذن الى الكعبة وأقبل القوم الى الكاهن يسألونه أن يضرب بالقداح وها هو ذا يضرب بقداحه ثم يضرب ثم يضرب بين قريش والكعبة فتخرج القداح للكعبة ثلاثا ويصيح عبد المطلب لقد ظهر قضاء الله فليكن ما أراد ! تفرقوا يا معشر قريش . . تفرقوا يا بني عبد مناف فليس لأحد منكم في هذا الكنز نصيب . أما هذا الذهب فسيضرب صفائح على باب الكعبة ، وأما هذه السيوف فستعلق عليها ، وأما هذه الدروع فستدخر في خزانتها . ثم التفت الى ابنه وقال هلم يا حارث اتبعني لنمض فيما كنا فيه وتفرقت قريش وفي صدورها غل وحنق . ولكن ثلاثة نفر من أهل الظواهر انتحوا ناحية وأقاموا يرددون الطرف بين الكنز والكعبة وعبد المطلب. ثم انصرفوا وقد فهم بعضهم بعضا . وأصبح الناس ذات يوم واذا الكعبة قد جردت مما علق عليها من ذهب وسلاح .

وراح عبد المطلب مع الماء الى أهله محزونا مكدودا راضيا مع ذلك لم يغادر قلبه الأمل . فاستقبلته سمراء فارة لم تسع اليه ولم تبتسم له . ولكنها لم تعرض عنه ولم تتجهم له . فلما سألها عن هذا الفتور أطالت الصمت وألح في السؤال . قالت : وهل تريد أن أبتهج ولم تريد أن أبتسم ؟ لقد علمت منذ زفني أبي اليك انى قد تزوجت رجلا لا كالرجال . لقد أحببتك ولكني أنكرتك . لقد أملت فيك ويئست منك . ثم عاد الى الأمل أول أمس ثم ها أنت ذا ترد الى اليأس مظلما حالكا قبيح الوجه بشع المنظر كأنه الغول . ماذا؟ ؟ لم يك الطائف أربع ليال يهيب بك ويلح عليك ويمازحنا مصرحا حينا مصرا دائما حتى اذا أذعت لأمره وانثنيت الى ما سبق اليك من خير وادخر لك في الارض من غنى زهدت فيه وانصرفت عنه واشفقت أن تسلمه الى قريش أو الى عبد مناف . فيقال « الفى بيده ونزل عن غنيمته فصرفت ذلك عنك وعنهم الى هذه البنية عليها الذهب وتمزها بالسلاح !

وماذا تصنع الاحجار القائمة بذهبك وسلاحك!؟ قه أنتم يا معشر قريش!؟ انكم لتكبرون من هذا البناء المنصوب مالا نكبر نحن في البادية ولولا حاجاتنا ومناقضنا لما هبطنا الى بطاحكم هذه حاجين ولا معتمرين ولكنكم قوم ضعاف تكبرون مالا يكبر ويسركم أن أمتعة الناس تهوي اليكم نحسونهم يقبلون اليكم بالدين وينصرفون عنكم بالطاعة ، وانما يقبلون عليكم بما عندهم من عروض . وينصرفون عنكم بما تحملون لهم من الآفاق . هلا طاولت قريشا وانتظرت بهذا الكنز حتى تروح الى ، لقد كان فيه غنى لك ولهذا الصبي الذي تعنيه وتضنيه منذ ألم بك ذلك الطائف . هلا ريثت واصطنعت الاناة ادا لاحويت الكنز ولأصبحت أغنى قريش وأكثرهم مالا ولما استطاع بنو عبد شمس ان يكاثروك بما علأ خزائنها من الدراهم والدنانير . اذا لأقبلت اليك بنو عامر بقوتها وبأسها فاعزتك ومنعتك من قريش ولكنك أشفقت وملأ قلبك الفرق وعبثت بنفسك بقية من كبرياء فأنفقت نفسك وقضيت على ابنك هذا أن يكون دون بني حرب ثروة ومالا . قال عبد المطلب محزونا : هون عليك يا سمراء وأقلل اللوم فما أرى انك تفقهين مما ترين شيئا . لا أحب لوجهك هذا التضر أن تعلوه غبرة الحرص على المال وما أحب لصوتك هذا العذب أن تشوبه مرارة الحديث عن المال . وما أرضى لك وان نسلتك أشراف بني عامر أن تمضي من أمر قريش ان فيكم أهل البادية لطباعا غلاظا ونفوسا يلؤمها الطمع أنتم لا تحسنون الدين ولا تقدرون الغيب ولا تؤمنون الا بما ترون ولا تحامدون الا القوة الظاهرة . لقد كنت أحسب أن مقامك الطويل بمكة قد غير نفسك بعض الشيء فاذا أنت اليوم كما كنت يوم انحدرت من بادية نجد الى هذه البطحاء . هون عليك ولا تشغل نفسك بما ليست منه في قليل ولا كثير . لقد أمرني الطائف أن احتفر ووعدني أن أجد الماء لأسقي الحجيج لا أن أجد الذهب لأغنيك وأدخل الخصب على بني عامر . فليس هذا الذهب لي ولا لقريش وانما هو لأمر يراد وانى لمن قوم لا يحبون الغصب ولا يستأثرون بما ليس لهم ولا يهتدون الحقوق ، فان تكن غلظة الاعراب وجفوة البادية وجحودها قد شاقتك فذري رحالك غدا والى باهلك فهم أحق بك وأدنى اليك . قال ذلك ونهض مغضبا وتركها واجمة بهذا الحديث العنيف تقاوم غيظا لم يلبث أن استحال الى دموع غلاظ تحدرت على خديها كأنها لؤلؤ العقد قد خانه النظام .

وارتفع صوت عبد المطلب بالتكبير حتى امتلأ به المسجد وفاض من حوله وحتى اضطربت له مجالس قريش في أفناء البيت خف الناس اليه وهم يقولون : ما ترى ان هائم هذا الا مطروقا يلقى من الجن شططا ويريد أن نلقى منه شططا . اقبلوا اليه سراعا يزدحمون وقد آلى اشرافهم لئن وجدوه قد ظفر بكنز أو عثر على غنيمة ليغلبنه عليها وليعطنه منها نصيب رجل من قريش وانتهوا اليه . وهو يكبر ويصيح هذا طي اسماعيل هذه بئر زمزم ، هذه سقاية الحاج ، لقد صدق الوعد وتحقق الأمل .

فنظروا فاذا عبد المطلب قد وجد الماء ، واذا هو يستقي فيشرب ويسقي ابنه ، ويرسل الماء بيديه من حوله كأنه يريد أن يسقي الارض والهواء والناس . هنالك ابتسموا له ورقوا به وقالوا: لقد بررت بقومك ياشيبة وانبطت لهم هذا الماء يستقون منه اذ ضنت عليهم الينابيع فوصلتك رحم ، لتعرفن لك قريش هذه اليد . قال ما أنتم وذاك ؟ هذه بئري قد حفرتها ، وكشفت طيها بأمر هبط الي من السماء . وهذا شرب ساقه الله الي سأسقيكم منه ان أردت . ولكني أسقي الحجيج منه قبل أن أسقيكم فذلك أمرت وأنا على ذلك قائم . قالوا يا ابن هاشم انك لتسرف على نفسك . وتشط على قومك وتخاق على السماء . ان هذه الارض ليست لك وانما هي لله ثم لقريش ، وان كل ماوجد فيها فهو لله ثم لقريش ، وانا لم نشهد أمر السماء حين تنزل اليك ومتى تنزل أمر السماء على الناس الا من طريق الكهان . فأين الكاهن الذي أمرك أن تحفر ؟ قال : يا قوم خلوا بيني وبين الماء . فوالله لن تبلغوا مني شيئا انكم تكثرونني بعددكم وعديدكم . ولكن الذي أمرني باستنباط هذا الماء حري ان يردعني كيدكم ويحميني من ظلمكم . انكم تستضعفونني حين ترون أني ابن واحد ولكن الذي سخرني لهذا الأمر خليق أن يمنحني من الولد من أكاثركم به وانى أقسم لئن منحني من الولد عشرة ذكورا أراهم بين يدي لأضحين له بواحد . وسمع بنو عبد مناف مقالة عبد المطلب فثارت نفوسهم وتحصبوا له وقاموا من دونه يردون عنه عدوان قريش وكاد الشر أن يقع بين القوم ولكن عبد المطلب قال : ياقوم فيم قطع الارحام وحفر الذمم واراقة الدماء ؟ انى والله ما أوثر نفسي من دونكم بشيء فان أبيتم أن تؤمنوا لي فهلم الى حكم فليقض بيننا . قال الملأ من قريش لقد أنصفكم ابن أخيكم من نفسه . فليكف بعضكم عن بعض ولنحتكم الى كاهنة بني سعد هذيم فما نعرف أبصر منها بمواقع الحكم .

وكانت قافلة قريش تتجهز للرحلة الى الشام فأجمع القوم أن يصحبها وحلهم الى الكاهنة في معان . فلما فصلت العير صحبها عبد المطلب في عشرين من بني عبد مناف وأرسلت قريش معها عشرين من بطونها المختلفة ومضى القوم ترفعهم النجاد وتعطهم الوهاد حتى طال بهم السفر ونفد ما كان معهم من ماء واشتد بهم الظمأ وأحرق أكبادهم الصدى وغدوا ذات يوم في فلاة منبسطة يحار فيها الطرف دون أن يهتدي الى أحد ليس فيها عين ولا بئر ولا شجرة ولا عشب وانما هي أرض ملساء جرداء تقع عليها أشعة الشمس الملتهبة فتلهبها تحت الاقدام وقد يئس القوم من كل روح وقنطوا من كل وجهة فاجتمعوا يتشاورون . قال قائل منهم ياقوم انما هو الموت فأنتم بين اثنتين : اما أن تموتوا ضيعة وتصبح أجسامكم نهبا لسباع الارض والجو لا تواريكم يد في التراب ولا تؤوى نفوسكم الى جدث تطمئن فيه واما أن يقوم بعضكم على بعض ويوارى بعضكم بعضا فيكون لكل منكم حفرته وتعرف نفوسكم اذا هامت في الفضاء الواسع بها وتسكن اليها . والرأى أن يحفر كل منكم حفرته ، وان تقيموا فأيكم ذهب الصدى بنفسه ورآه أصحابه وبكوا عليه . فلا يذهب منكم ضيعة الا رجل واحد تمتد به الحياة الى أقصى أجل . قال ذلك قائلهم ونهض فأخذ يحفر حفرته . وتناثل القوم بعض الشيء يفكرون في أولادهم وآخرتهم ويذكرون مكة ومن تركوا فيها من أهل وولد ومال . ويذكرون الشام وينظرون الى ما كانوا يحملون اليها من تجارة ويفكرون فيما كانوا ينتظرون أن يحققوا فيها من ربح . وتقدم رسل قريش الى الكاهنة يتلاومون في البئر وفي خصومتهم لصاحب الحق . ثم ينهضون والموت يثقل نفوسهم فيسمد كل منهم الى سنان يحط به حفرته في الارض .

كل ذلك وعبد المطلب ساكت ساكن لا يقول ولا يرمي ، ولكنه نهض فجأة وقال بصوته العذب الريض : يا معشر قريش ما أعجزكم ! ها أنتم أولاء تلقون بأيديكم وتنتظرون الموت وتقطعون ما بينكم وبين أهلكم وولدكم من أسباب الحياة ، وان فيكم لبقية من قوة وانى لكم القدرة على الحركة وفضلا من النشاط لا والله ما أنا بسالم نفسي للموت حتى يكرهني عليها ، هلم فاضربوا في هذه الأرض لعل الله أن يجد لكم من هذا الضيق فرجا » ووقعت ألفاظ عبد المطلب هذه من نفوس الناس موقع الغيث واذا الآمال تحيا . واذا النشاط يتجدد واذا القوم ينهضون الى رواحلهم واذا هم يؤثرون أن يتخطفهم الموت على أن يسمعوا هم اليه ونهض عبد المطلب الى راحلته حتى اذا جلس عليها وزجرها نهضت به وهمت لتندفع ولكن ماذا ! ماذا يسمع القوم ؟ ماذا يرون ؟ هذا عبد المطلب يصيح بأعلى صوته مكبرا وهم يتمتمون فاذا عين غزيرة قد انفجرت تحت خف الراحلة واذا هي تفور واذا الماء ينبسط من حولها فينقع غلة الارض المحترقة قبل أن ينقع غلة القوم الظماء !

هلم يا معشر قريش الى الماء الرواء ! قد فجره الله لكم من الصخر الصلد . هلم فاشربوا واسقوا ابلكم واملأوا مزادكم هلم فانعموا بهذا الماء الصافي النقي البارد في هذه الفلاة القاتمة المحرقة .

والقوم يضجون بالرضى والغبطة وان للابل من حولهم لأطيطا ملؤه الرضى والغبطة أيضا . ومن ذا الذي زعم أن نفوس الناس وحدها هي التي تجد اللذة والألم وتشعر بالسرور والحزن ، روى الناس ورويت الأبل ، ورويت الارض وقالت رسل قريش لعبد المطلب عد بنا ياشيبة الى مكة فقد قضى علينا وان الذي سقاك في هذه الصحراء لنقدنا بك من الهلاك هو الذي سقاك في مكة وساق اليك ما تروى به الحجيج

وأمل البشير على صحراء ينبئها بأن زوجها قد عاد اليها سالما موفورا مظفرا . فقالت وعلى ثغرها ابتسامة الكئيب المحزون : « حيذا شيبة مسافرا وحبذا شيبة مقيما ! ولكن شيبة لن يخلص لي منذ اليوم . انه لا يريد كثرة الولد . وأبي نساء قريش تستطيع أن تمتنع عليه . ثم أشرقت شمس النهار على عبد المطلب وهو يسعى الى عمر بن عائذ المخزومي ليخطب اليه فاطمة وهي ام جماعة من ولده ينهم عبد الله

وألمت بأهلها في بطاح مكة وظواهرها كيف تهتدي إلى أجسادها فتلم